أهمية المصادر التاريخية عند المؤرخ

واضح مداني

دكتورالي/ جامعة الجزائر/2

الملخص:

تكتسي المصادر التاريخية بمختلف أنواعها سواء المادية أو الغير مادية أهمية بالغة عند المؤرخ إذ تعتبر مادته الأولية في كتابة تاريخ الشعوب والبلدان وحتى تراجم الشخصيات وبذلك فإن عمل المؤرخ متوقف على مدى حصوله على هذه المصادر ،وقدرته على توظيفها والاستفادة منها .

Abstract:

Historical sources of various kinds, both material and non-material, are of great importance to the historian as his initial material is in the writing of the history of peoples and countries and even the translations of the characters. Thus, the work of the historian depends on the extent to which he obtained these resources and his ability to employ them and benefit from them.

الكلمات المفتاحية: التاريخ/ المنهجية/ المؤرخ/الوثيقة/المذكرات الشخصية/الدوريات/المصادر التاريخية/ المعاجم/ التحليل/ النقد التاريخي/ المصادر المادية .

المقدمة :

يتفاوت الناس في درجة حماسهم لمعرفة تاريخهم فهناك شعوب ترضى عن جهل تاريخها وقد تعمد إلى تزييفه وطمسه خاصة إذا كان يدينها وقد يكون هذا الطمس كليا أو شبه ذلك، بينما شعوب أخرى لا ترض عن جهلها لتاريخها بل تتطلع لمعرفته والبحث فيه وتلقينه للأجيال حيث تتناقله جيلا بعد جيل وبالتالي تزيد قيمتها وأهميتها في نظر الإنسانية،ذلك بأن التاريخ لا يقتصر على دراسة حياة وأعمال عاشها الإنسان وانقضى أجلها وبالتالي لافائدة ترجى منها بل هو دراسة ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله فعلى أساس الماضي يفسر الحاضر ويبنى المستقبل .

لقد كان التاريخ قديما يفهم على أنه سرد للروايات والأساطير في مختلف الجلسات والمسامرات وشاع هذا المفهوم في العصر اليوناني والروماني ،ثم ارتقى بعد ذلك إلى تسجيل الحوادث والأخبار ورصد سير العظماء ثم أصبح يرصد حركة تطور الشعوب وارتقائها من شعوب بدائية إلى شعوب متحضرة تملك حضارة راقية في مختلف نواحي الحياة فارتقى معها التاريخ بكل انجازاتها وحتى همومها وتعقيداتها ،ذلك بأن التاريخ مرآة تطور الواقع المعيش والمجتمع والقوى المسيطرة على وسائل الإنتاج .

لقد شاع لغط كبير بين البعض وحتى منهم من يحسب على النخبة وأخص بالذكر هنا بعض الفلاسفة الطبيعيين الذين يعتبرون التاريخ لايمت بصلة إلى العلم، ودليلهم في ذلك عدم اعتماده على التجربة كما لايمكن معاينة الوقائع التاريخية معاينة مباشرة ،فهي وقائع غير قابلة للتحديد لارتباطها بالزمان وخاصية الزمان أنه غير قابل للإعادة،بينما يرى رجال الأدب أن التاريخ من الفنون وأن العلم لايعطينا من التاريخ إلا هيكله اليابس، حيث يعمل المؤرخ جاهدا على كسو هذا الهيكل باللحم ثم بث الروح فيه وبعدها نقده وتحليله باستخدام منهجه العلمي الذي يمكننا من الوصول للدقة والحقيقة أو على الأقل الإقتراب منهما ،مجنبا الباحث كل ما يمكن أن يضله عن ذلك كهوى النفس من ميولات شخصية وهوى ذاتي .

وعلى الرغم من الفشل والمشكلات الكثيرة التي توجب علينا البحث عن حلول لها وإيجاد صيغة أفضل تتوافق من خلالها وتراثنا وشخصيتنا الثقافية ،إلا أن المتأمل في تاريخ التعليم العربي الإسلامي سيجد بأن المسلمين قد عرفوا التاريخ كنظام تعليمي وقد عملوا على تدريسه ضمن العلوم التي عرفتها المدرسة الإسلامية ،وبذلك نقول لهؤلاء بأن التاريخ علم إنساني لا يحتمل لغو الكلام ولا الإمعان في الخيال ، ولا طغيان زخرف القول على الحقيقة أو المعلومة ،ولأنه علم الإنسان فلابد للباحث في مجاله إمتلاك ناصية الكلمة أو حتى التعبير عن المشاعر الإنسانية والبواعث البشرية تعبيرا صادقا ،ولأن التاريخ علم كباقي العلوم فلابد له من أدوات ومنهجية علمية لتوظيف هذه الأدوات التي تعتبر أسسه ودعائمه إذ لا يمكن الوصول إلى كتابة تاريخية حقيقية من دونها، حيث تسمى هذه الأدوات بالمصادر التاريخية ،فماهي المصادر التاريخية التي يستعين بها المؤرخ من أجل كتابة التاريخ وما هي المنهجية العلمية المستخدمة لهذا الغرض ،ثم هل يمكن الإستغناء عن هذه المصادر وما قيمتها التاريخية ؟.

أولاً: المصادر التاريخية :

تعتمد الدراسة التاريخية على العديد من المصادر التي تساعد المؤرخ في دراسته ويعتمد عليها كسلم يرتقي من خلاله باحثا عن الحقيقة مستخدما ميكانيزمات وأليات يجندها بمنهجية علمية دقيقة تمكنه من خلالها إنتقاء الغث من السمين والجيد من الضعيف ،وبناء عليه يمكن تقسيم المصادر التاريخية إلى نوعين وهي :

1. المصادر المادية :

لا يمكن بأي حال من الأحوال الإستغناء عن المصادر التاريخية من أجل كتابة التاريخ مهما تنوعت تحقيباته واختلفت مواضيعه ،فإذا كان التاريخ الحديث أو المعاصر يعتمد على الشهادات والوثائق فإن التاريخ القديم وحتى الوسيط يعتمد في بعض مواضيع دراسته على مايسمى بالنقوش والحفريات والدراسات الأثرية ،ذلك بأن النقوش المسجلة على جدران الكهوف في الطاسيلي مثلا أو الأهرامات المصرية وكل المخلفات من أواني فخارية أو قبور أو أثاث جنائزي تعبر عن حقبة تاريخية معينة ،وترمز إلى منظومة إجتماعية وعقائدية سادت عند شعب من شعوب المنطقة محل الدراسة ،وبذلك تكون هذه المادة أرضية خصبة وموضوع دسم ومصدر أساسي للباحث ينطق من خلاله ليستقي منه موضوع بحثه .

ويهتم علم دراسة النقوش بدراسة تلك الرسومات والكتابات والنقوش على الأحجار والجدران والأشجار وتفسيرها بعلم أخر يسمى علم الكتابات على الأحجار -الباليوغرافيا-وهي وثائق ماقبل التاريخ أي قبل أن يعرف الإنسان الكتابة وبعد أن عرف الكتابة حوالي 3200 ق. م انتقل إلى عصر التدوين وعصر الوثائق المكتوبة[1] فظهرت الوثائق البردية المصنوعة منورق البردي في مصر، فدون عليها المصريون القدامى مختلف شؤون حياتهم بمختلف جوانبها ،وعلى الرغم من قيمتها العلمية إلا أنها لاتعطينا الحقيقة المطلقة ذلك بأن الأخطاء الواردة فيها ،وأسلوب كتابتها التي تظهر عليه الميولات والأهواء الشخصية تزيد الباحث إسرارا على التقصي والتحري عن الحقيقة وتدفع فيه روح الشك التاريخي والنقد العلمي.

كما تصنف المسكوكات والنقود أو مايصطلح عليها بعلم النوميات كمصادر مادية أساسية في عملية البحث التاريخي ،ذلك بأن الأهمية الإقتصادية لمثل هذه المصادر في حركة التجارة أو التبادل الإقتصادي لتلك الأمم والشعوب محل الدراسة كبيرة ،فالمعلومات الواردة على مثل هذه القطع النقدية خاصة تلخص لنا المجتمع من جوانب عديدة كالمذهب، الديانة، إسم الدولة، مستواها الإقتصادي ،وحتى الحالة السياسية [2] مثلا لوتناولنا الريال السعودي لوجدناه كالتالي :

على الوجه الأول السنة الهجرية وقيمة العملة بالرقم العربي والأوروبي والوجه الثاني إسم المملكة العربية السعودية وإسم الملك وفي الوسط صيفان متقاطعان مادتها سبكة أو خلطة معدنية قوية بها نسبة

من الفضة ،فترجمة هذه المعلومات من الناحية التاريخية تمكننا من معرفة العديد من القيم الدينية، الحضارية، والإقتصادية منها أن المملكة العربية السعودية دولة إسلامية إتخذت من السيف رمزا لها وقد يعني القوة ، وإتخذت من النخلة كشعار يعبر على أنها تحتل مكانة هامة في إقتصادها مما يجعلنا نخمن أنها تعتبر من الدول الأوائل في إنتاج التمور ،فالريال حسن السبك خلطته المعدنية القوية قد تفوق قيمته الذاتية ،كما أن استخدام التاريخ الهجري تاريخ رسمي للدولة على وجه العملة يوحي بمدى تمسكها بالهوية العربية والدين الإسلامي .

2. **المصادر الغير مادية** :

بالإضافة إلى المصادر المادية فإن الدراسة التاريخية كما تحتاج إلى المصادر المادية تحتاج أيضا إلى المصادر الغير المادية، ذلك بأن تطور حركة المجتمع والتغيرات التي عرفها الإنسان بشكل يومي ولايزال إلى اليوم يعرفها غيرت مساره التاريخي وبالتالي تحددت من خلالها مصادر الدراسة فإذا كان الإنسان في عصور غابرة من تاريخه يستخدم الكهوف للعيش يحتمي بداخلها وينقش على جدرانها ما يختلج في نفسه من أفكار ومعتقدات ،وقد أصبح يترجمها بعد ذلك على شكل تدوين بعد ظهور الكتابة ،إلا أننا لانستطيع الجزم أن الإنسان في ذلك الوقت أو حتى اليوم كان يدون كل أحداثه بتفاصيلها فلسبب أو لأخر قد تسقط بعض الأحداث من ذلك التدوين ،وقد يسقط التدوين كله في ظروف معينة كالحروب أو المجاعات أو مختلف الأزمات الأخرى ،وبذلك نلجأ في مثل هذه الحالات إلى مابقي عالقا في الذاكرة لنستقرأه أخذين معنا ميكانيزمات العمل التاريخي ومنهجيته العلمية .

لقد اعتمد القدامى في تدوين تاريخهم على الأسلوب القصصي والروايات الشفوية فقد اعتمد الإغريق على أشعار "هوميروس" كأول كتابة تاريخية إغريقية وتضمنت تمجيد الأبطال والمعارك التي قاموا بها وكان ذلك في القرن التاسع ق.م ثم جاء بعد ذلك "هيرودوت "الذي اعتبر أن إرادة الإنسان هي التي تصنع التاريخ[3].

يلجأ الباحث إلى الإستعانة بالتاريخ الشفوي لملأ الفراغ الموجود في المصادر المادية أو لتأكيد بعض ماورد في هذه المصادر ومن ثمة مقارنتها عن طريق مايسمى بالتقاطع في المعلومة ليتأكد من صحتها ،أو لأن المصادر المادية لم تتطرق إليها أصلا أو تطرقت بنوع من الغموض أو الحساسية التي من شأنها أن تؤثر سلبا على الكتابة التاريخية ،فيلجأ الباحث إلى المقابلات والمناقشات بينه وبين المصدر المباشر أو أشخاص لهم إتصال وثيق بالحادثة التاريخية أو عايشوا الحادثة من قريب أو من بعيد [4] ،وعن طريق المناقشة المباشرة مع المصدر والأسئلة الكتابية والشفوية التي يعدها الباحث تكون إجابات المصدر مسجلة على جهاز بالصوت والصورة ليكون التثبيت مؤكدا ،إلا أنه لايمكن حمل أي معلومة وردت في مصدر ما سواء أكان مادي أو غيره على أنها الحقيقة الكاملة ،حيث يلجأ الباحث بعد مرحلة الجمع هذه إلى مرحلة الغربلة ،لينتقي الغث من السمين عن طريق منهجية علمية تاريخية محددة تمكن الباحث من الإقتراب شيئا فشيئا من الحقيقة التاريخية .

ثانيا: المنهجية العلمية لتوظيف المصادر التاريخية :

يقول ابن خلدون في شأن التاريخ :"فاعلم أن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياساتهم ،حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يرومهم في أحوال الدين والدنيا " [5]ويضيف في موضع آخر:"فالتاريخ علم إنساني لايحتمل لغو الكلام ولا الإمعان في الخيال ولاطغيان زخرف القول على الحقيقة أو المعلومة ولأنه علم الإنسان فلابد للباحث في مجاله إمتلاك ناصية الكلمة أو حتى التعبير عن المشاعر الإنسانية والبواعث البشرية تعبيرا صادقا " [6]فإذا كانت أهمية التاريخ بهذه القيمة عند ابن خلدون فإن منهجية كتابته تكتسي قيمة أكبر منها ذلك بأنه إذا كان بمقدور أي كان أن يدون أحداثه أو أحداث غيره فإن ناصية الكلمة التي وصفها ابن خلدون لايمتلكها إلا المتخصص، ذلك بأن مهمته تزداد صعوبة وهو يحاول الإستفادة من مختلف المصادر التاريخية المتعلقة بموضوع بحثه مقدما عمله في شكل علمي أكاديمي للمتخصصين والقراء ،لذلك فإن تفحص نوع المادة التي استقى منها معلوماته أهي مصادر مادية كنقوش وأثار قديمة، أو معاصرة ثبتت صحتها وصحة معلوماتها ،أو وثائق ومراسلات مستخرجة من دور الأرشيف المختلفة، ويثبت أنها غير مزيفة وأن معلوماتها صحيحة وأنها لم يسبق لها وأن نشرت أو على الأقل لم يسبق لها وأن استخدمت بكيفية كافية [7] وبالتالي يمكن استنتاج مراحل منهجية توظيف المصادر التاريخية في الخطوات التالية :

1. مرحلة جمع المادة العلمية :

وتكون هذه المرحلة من خلال التزام الدقة في البحث مع اختيار الموضوعات المهمة الخادمة لموضوع البحث بطريقة علمية حديثة عن طريق جمع كل ماله علاقة بالموضوع من هذه المصادر وأفضلها هي طريقة الجمع بالبطاقات الورقية ثم يكتب أسفل الورقة إسم المؤلف ،وعنوان المصدر ورقم الجزء ورقم الصفحة وعلى الباحث أن يقرأ السطور ومابين السطور وإذا كان له تعليق أو إضافة يكتبها على حافة الورقة لكي لاتختلط كتاباته مع كتابات أخرى لنفس المصدر الذي اقتبس منه ، ومن غير شك ينبغي عليه المفاضلة بين مختلف المعلومات التي جمعها فلايتمسك إلا بما يفيده ويخدم موضوعه واتجاهه في الكتابة على الرغم من أن قيمتها العلمية كبيرة الا أن الباحث مضطر لأخذ جزء منها فقط [8]

2. مرحلة النقد :

حيث يقوم المنهج العلمي التاريخي في البحث على جمع المعلومات التاريخية ثم فحصها وانتقاء الجيد منها، ثم تحقيقها وترتيبها وفق قواعد معينة ،ذلك بأن المنهج التاريخي هو منهج نقد دائم وشك [9] من أجل الإستفادة من مختلف مصادر البحث كما يتعين على الباحث أن يتحرى مختلف النصوص التي بين يديه ويحدد العلاقة بينها وينقدها نقدا ظاهريا وباطنيا ويجتهد في عملية تنظيمها وترتيبها وتركيبها وإنشاء الصيغة التاريخية ثم عرضها عرضا تاريخيا معقولا [10]. وبالتالي فالتاريخ محتاج إلى م آخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق ويجانبانه المزلات والمغالط ذلك بأن الأخبار التي يعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم فيها أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الإجتماع الإنساني ولاقيس منها الغائب بالشاهد ولا الحاضر بالذاهب كان مصيرها الحيد عن جادة الصواب [11]. وبذلك فإن عملية النقد تتطلب جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن كتابة النص وهذا يتوقف على مدى تحري الحقيقة ومدى علاقة المادة التي تم جمعها بالأحداث التي كتب عنها الباحث وهل هذه الأحداث من مصدر

مباشر شاهدها المصدر بنفسه أو اشترك فيها أم أنه سمع عنها فقط وهل مضى وقت طويل بين وقوع الحدث نفسه وبين تدوينه [12] . فالقدرة على البحث ونقد المصادر واستخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وعرضها كما تبنى المنهجية بناءا على بعد الباحث عن التحيز والأهواء ومطابقته للواقع قدر المستطاع فلا يتخذ 'تجاها معينا يؤثر على توجهه في الكتابة التاريخية أو يجسد نوع من التفكير أو النزعات الإنسانية [13].

3. مرحلة التحقيق :

حيث يقدم الباحث هنا موقف الشك على اليقين ويقدم الإتهام على البراءة ،وأشبه مايكون عمله هنا بعمل وكيل النيابة أو المحقق في تقديم الإتهامات ثم يعمل عمل المحامي في الدفاع عن المتهمين ثم يعمل عمل القاضي أخيرا الذي يعيد الحكم ، حيث يقول أحمد توفيق المدني في هذا الشأن :"التاريخ في نظري عرض وتتحليل وتعليل وحكم فالمؤرخ الحق إنما هو حاكم نزيه حر الضمير يدرس الوثائق والمستندات ويستخرج الحقائق من بين النصوص ويستمع بإمعان إلى مايقوله هؤلاء ،ثم ينظر في الملابسات ويدرس المحيط فإذا ما أسفر أمامه وجه الحق ناصعا أصدر حكمه عادلا لاعاطفة ولارياء ولا محاباة " [14]أي أن الباحث يصل إلى مجموعة من الآراء عن حوادث الزمن الماضي وقد تطابق الواقع أو لاتطابقه، كما أنه لايكف النقد وحده للوصول إلى الحقيقة التاريخية حيث بواسطتها يستطيع التمييز بين الروايات المكذوبة وبين الروايات المشكوك في صحتها وبين الروايات التي يحتمل الصدق في صحتها وبين الروايات التي يحتمل الصدق فيها والروايات التي لايمكن تحديد قيمتها لعدم إمكان الباحث للوصول في شأنها لرأي سليم [15]

4. **مرحلة الإستنتاج:**

بعد مرحلتي النقد والتحقيق يلجأ الباحث إلى مرحلة الإستنتاج لأنه قد يكون هناك سكوت المصادر أو الكتاب عن حادثة معينة فيلجأ الباحث لاستنتاجها وفق ماحدث من حوادث أخرى مشابهة وبالتالي يكمن دور الباحث في هذه الحالة في سد الفجوات والثغرات التي لم تسد من قبل الأخرين فيسدها عن طريق الإستنتاج والإجتهاد ، وتقوم هذه العملية على تحليل الأفكار وتركيبها ومن المعلوم أن هذين العمليتين تتمان على صعيد العمليات الذهنية باستخدام التطورات المجردة وتكمن الغاية في الكشف عن بنية وخفايا الموضوع قيد الدراسة [16]حيث تكمن قيمة المنهج العلمي التاريخي للبحث في أنه يمكن من خلاله دراسة الأحداث الراهنة والإتجاهات المستقبلية في ضوء ماحدث في الماضي حتى يتمكن الباحث من تقويم ديناميكية التغيير أو التقدم أو تحقيق المزيد من الفهم للمشكلات المعاصرة وإمكانية التنبؤ بالمشكلات التي قد تنجم مستقبلا ،وبذلك يحقق البحث التاريخي ميزة مزدوجة من حيث الإستفادة من الماضي للتنبؤ بالمستقبل والإستفادة من الحاضر لتفسير الماضي [17].

5. مرحلة تحرير الموضوع:

وهي أخر مرحلة من مراحل البحث وتوظيف المصادر التاريخية الأدبية حيث يتمكن الباحث بواسطة هذه المرحلة من عرض عمله بأسلوب علمي أكاديمي أمام القارئ ،وللوصول إلى ذلك يجب على الباحث أن يختار مايلزم فقط من المادة العلمية وأن يبدأ موضوعه بمقدمة قصيرة تتلاءم وطبيعة المادة المدروسة ،يوضح من خلالها منهج الدراسة مع مراعاة سلامة الأسلوب وسلاسة الأفكار وربط فصول الموضوع

مع بعضها البعض واحترام أراء من سبقه أو عاصره من المؤرخين ، وعلى الرغم من أنها أخر مرحلة إلا أنها ليست أسهل من المراحل السابقة إذ أن كتابة التاريخ لاتصبح سهلة إلا إذا كانت جميع الحقائق ماثلة أمام الباحث مرتبة معللة ومشروحة ،حيث يتمكن الباحث بواسطتها من أن يتخيل موضوع البحث كله كوحدة عامة ويدرك أهمية أجزاء البحث ويحسن اللغة التي يكتب بها[18] ولذلك فإن كل من المصدر التاريخي والمنهجية العلمية شيآن متلازمان لكتابة التاريخ إذ أن الإقتراب أو الوصول إلى الحقيقة التاريخية متوقف على مدى قوة وتنوع المصادر المعتمدة في الدراسة وعلى صحة ودقة المنهجية العلمية من طرف الباحث.

ثالثا: أهمية المصادر التاريخية بالنسبة للمؤرخ :

لايمكن للمؤرخ أن يستغني عن المادة العلمية في كتابة التاريخ وإلا أصبح التاريخ مقبورا مثله مثل الأساطير والروايات الخيالية ،لذلك فإن أهمية المصادر التاريخية بالنسبة لكتابة التاريخ والمؤرخ مهمة جدا ،كما تتفاوت درجة أهميتها من مصدر لأخر حسب نوع المصادر وطبيعة الموضوع المطروح للبحث ومن هذه المصادر نذكر :

1. الوثائق التاريخية:

وتمثل في مجملها مختلف القوانين والتشريعات التي صدرت من هيئات كانت سياسية أو مرتبطة بالسياسة ،ومثال ذلك بريطانيا التي تعتبر وثائقها في غاية الأهمية ولاتسمح بدراستها إلا بعد مرور ثلاثين سنة ،ونفس الشئ بالنسبة لفرنسا لاسيما أنهما دولتان متزامنتان في القوة إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ولاتزالان حتى اليوم إضافة إلى تركيا مركز الدولة العثمانية ،وكذا وثائق جامعة الدول العربية وتتضمن وثائق هذه الأخيرة جملة القضايا التي تعرض على الجامعة والخاصة بالدول العربية الأعضاء .

وتعتبر الوثيقة من أرقى أنواع المصادر الضرورية لكتابة التاريخ ،كما توجد وثائق من الطراز الأول وهي تلك الوثائق التي لم يرد بها صاحبها أن تكون من شواهد التاريخ كالتقارير السرية وعقود البيع مثلا ،وهناك وثائق من الطراز الثاني وهي عبارة عن مراسلات ومعاهدات رسمية في الغالب ،وتزداد القيمة التاريخية للوثيقة في سريتها وعرضها لأول مرة من طرف الباحث ،هذا وقد خصصت معظم دول العالم مراكز خاصة ودور للأرشيف تعنى بالحفاظ على هذه الوثائق وإتاحتها للباحث وفق الشروط القانونية المحددة ومن هذه المراكز :الأرشيف القومي الفرنسي ، دار المحفوظات المصرية[19] دار الوثائق البريطانية، الارشيف الامريكي ودار الكتب والوثائق العراقية وغيرها كثير.

2. المذكرات الشخصية :

تعرف المذكرات الشخصية على أنها تلك الكتابات التي كتبها أشخاص لهم صلة بحكم البلاد أو حكموها سابقا أو كانوا فاعلين في حادثة تاريخية معينة أو شهود عليها من قريب أو من بعيد ،وتعتبر المذكرات الشخصية تكملة لما سكتت عنه الوثائق التاريخية أو تغاضت عن ذكره ،فلايجب على المؤرخ -رغم قيمة هذا المصدر- أن يأخذه على أنه الحقيقة المطلقة بل يجب عليه مراعاة صدقها من كذبها فطالما تكون هناك نزعة

ذاتية أو ضغوط أو انحياز إلى فئة معينة أو تبرير لموقف يتلاءم مع صاحب المذكرات خاصة بعض الأحداث التاريخية التي حكم عليها التاريخ بالسلب ،وبالتالي توفر ملكة النقد لدى دارس التاريخ أمر ضروري .

ويمكن الإشارة هنا إلى بعض المذكرات العلمية الأكاديمية وهي تلك المذكرات الصادرة عن مؤرخين معاصرين للأحداث شغلوا مناصب رسمية ،فجاءت كتاباتهم تكتسي صفة المذكرات ،فتزداد قيمتها للباحث من جهتين الأولى أنها مذكرات يتزود من خلالها بمختلف المعارف والأفكار لأصحاب صنعوا الحدث أو كانوا قريبين منه والثانية أنها كتبت بأقلام علمية أكاديمية.[20]

3. المخطوطات:

وهي تلك الوثائق التي تم العثور عليها من طرف الباحثين والتي تعبر عن أفكار وأراء كاتب أو مؤرخ عاش حدثا ما أراد تدوينه ،وهي قليلة حاليا لانتشار الطباعة بصورة واسعة وعند العثور عليها يعمل دارس التاريخ جاهدا على تحقيقها بمراعاة اللغة التي كتبت بها والخط هل هو للمؤرخ أم خط ناسخ وهل هي النسخة الأولى أم الثانية نظرا لبعض الزيادة أو النقصان الذي يلحق بها .

وتعتبر المخطوطات من أهم مصادر التاريخ وهذه المخطوطات يندرج تحتها علم يسمى "علم دراسة المخطوط "ويعتبر من العلوم المصدرية الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ منذ أقدم العصور حتى أزمنة متأخرة ،وبفضل هذه الدراسة يتجنب الباحث الوقوع في الخطأ ومجانبة الصواب [21].

4. كتابات وأشعار المعاصرين وشهود العيان :

يعد الشعر من أهم مصادر التاريخ التي تصف مجريات الأحداث والحالة التي كانت عليها المنطقة في فترة زمنية معينة فمثلا أحمد شوقي أنشا شعرا حول إحتلال ليبيا وسوريا وكيف تم صلب عمر المختار على يد الإيطاليين ونظم عدة قصائد تمجد أقطار المغرب العربي لاسيما مصر بعد إحتلالها من طرف بريطانيا سنة 1882.

فلاشك أن معاصرة الشاعر لشؤون زمانه تجعله يعالج قضايا عصره ويدافع عنها بأسلوبه الخاص فهو أقدر من غيره على تصوير الحقائق بألوانها الطبيعية، ذلك بأن الفصيدة المعاصرة لزمن الحدث تعتمد كثيرا على المعاينة والسماع من مصادر معينة مايجعلها قريبة من الحقيقة التاريخية [22]، كما أن الباحث يستطيع الإتصال بهؤلاء الشعراء الذين عاشو الحدث التاريخي أو كتبوا عنه فقد يكون لديهم مايفيد الباحث في بحثه كمذكراتهم الغير منشورة ،أو حتى الإستفادة من مواقفهم وأراءهم الشخصية حول بعض القضايا أو الإستفسار عن بعض الغموض [23].

5. كتابات المؤرخين المحدثين:

تعتبر كتابات المؤرخين المحدثين من أهم المصادر لكتابة التاريخ ،والأجدر بالباحث أو المؤرخ الذي يكتب تاريخ وطنه أن يتحلى بالصدق والموضوعية في عرض الأحداث على عكس كتابات المستشرقين مثلا

المعلومة الأهداف والنوايا ،وبالتالي فكتابات المؤرخين المحدثين تتميز بفضائل على كتابات المؤرخين السابقين لعل أهمها بالنسبة للباحث إعتماد منهج البحث التاريخي والتقيد بالموضوع زمانيا ومكانيا .

فالمؤرخ الذي يكتب عن وطنه هو الأدرى بشؤون بلده من غيره ،وهو الأقرب إلى الحادثة التاريخية فتأتي كتاباته مصبوغة بالصدق والدقة ،لاسيما أن الكتابة التاريخية الحقيقية تعتمد بالدرجة الأولى على المعاينة والمشاهدة والسماع والإطلاع المباشر على الحادثة تجنبا للوقوع في المغالط [24]

6. اللقاءات والمقابلات الشخصية "التاريخ الشفوي":

وهي تلك المقابلات والمناقشات التي تجري بين الباحث والمصدر التي من خلالها يقوم الباحث بأسئلة سواء أكانت كتابية أو شفوية على السياسي أو الذي عايش الحدث ليجيب عنها ،وعلى الباحث في نفس الوقت تسجيلها كتابيا أو صوتيا عن طريق الجهاز أو عن طريق الصوت والصورة بالفيديو ليكون التثبيت مؤكدا .

كما يستطيع الباحث الإتصال بأشخاص لهم اتصال وثيق بحدث تاريخي معين ، أو عايشوا الحدث سواء من قريب أو من بعيد ، أو قد تكون لديهم بعض الوثائق كالمذكرات الشخصية مثلا التي تعتبر مادة دسمة للباحث في استخدامها لتأكيد أونفي حادث معين أو عن طريق المناقشة المياشرة مع المصدر –المصدر الشفوي- [25]

7. كتب المراجع :

تعتبر كتب المراجع المختلفة ذات أهمية كبيرة بالنسبة للمؤرخ في كتابة التاريخ خاصة التاريخ الحديث لذا تعمل مختلف المكتبات اليوم على القيام بالعديد من المطابع لتطوير عمليات الطباعة فلكل مجاله ولكل دولة لها مراجع تاريخها الخاصة ،كما تعتبر العديد من المقالات التي تنشر في المجلات العلمية المتخصصة من أهم المراجع التي يمكن الإعتماد عليها في كتابة التاريخ ،بل لايمكن للمؤرخ الإستغناء عنها.

وتكون منهجية الإستفادة من تلك المراجع عن طريق إنتقاء وجمع المادة العلمية التي تحتويها وهي مرحلة كما سبق وأن ذكرنا من أولى مراحل البحث العلمي ،كما يستفيد الباحث من هذه المراجع عن طريق المصادر التي وظفتها أو عن طريق المنهجية العلمية التي إستخدمتها في عرض الأفكار وتحليلها لاسيما بأن هذه المراجع كتبت بأقلام علمية متخصصة.[26]

8. دوائر المعارف والمعاجم:

وهي تلك الدوائر التي تعنى بدراسة التاريخ من مختلف جوانبه وشخصياته ومعاركه وأزمنته ومختلف البطولات ،ومنها دائرة المعارف الإسلامية بالقاهرة والتي وضعت من طرف هيئة علمية مختصة تظهر كفاءتها من خلال التحليل والمناقشة والتي تضع بين يدي القارئ مجموعة كتب تتناول التاريخ من كل جوانبه ،وهناك دائرة معارف أخرى وهي دائرة المعارف البريطانية وهي مكتوبة باللغة الإنجليزية والعبرية ناهيك عن المعاجم ذات القيمة العلمية الكبيرة والدور الفعال في تبيان مدى تطور اللغة والتي لابد منها للباحث .

وتقترن هذه المعاجم بلغات العالم المختلفة وحتى القديمة منها فللاستفادة منها يجب الإلمام باللغة التي كتبت بها وهذا مايزيد من صعوبة عمل الباحث ،فلايمكن له أن يبحث في تاريخ مصر القديم دون معرفة اللغة الهيروغليفية ولايمكن له الكتابة عن الإمبراطورية الرومانية دون الإلمام باللغة اللاتينية وهكذا .[27]

9. الدوريات :

وهي الجرائد والمجلات التي تكمن قيمتها العلمية فيما توفره من مادة علمية في شكل مقالات لمختصين باحثين ومؤرخين ،ويكمن التمييز بين أربع أنواع من الجرائد وهي الجرائد المستقلة والجرائد المؤيدة للدولة والجرائد المعارضة لها والجرائد الممولة من طرف الأجانب ،حيث تصدر كلها إنطلاقا ممايملى عليها من طرف الجهة التابعة لها ،وبذلك يجب على الباحث الحذر منها أثناء اعتماده عليها ، فنجد مثلا جريدة "أم القرى" هي جريدة رسمية ناطقة باسم الدولة السعودية بدأت بالصدور عام 1924، في المقابل نجد بعض المجلات العلمية المحكمة التي تصدر عن مخابر بحث أكاديمية تابعة لجامعات كجامعة الجزائر أو القاهرة أو غيرها تعنى بشؤون ثقافية سياسية علمية ،وتكتب بأقلام أكاديمية متخصصة وتخضع قبل نشرها لرؤساء تحرير ولجان علمية لإعادة قراءتها وإعطاء الإذن بنشرها فمثل هذه الأعمال ذات قيمة علمية كبيرة لامناص للباحث من الإستفادة منها .

الخاتمة:

إن تناول موضوع كهذا بالعمق والموضوعية التي عرفت عن رواد المدرسة التاريخية في الجزائر أو حتى عن المؤرخين القدماء لهو أمر عسير على الباحث ذلك بأن نشأة علم التاريخ ومكانته بين العلوم الأخرى والهدف من دراسته ومنهجية البحث فيه أمر من الصعوبة بماكان في ظل تطور الدراسات التاريخية المثالية والمادية والأخلاقية والإجتماعية وعلاقة كل واحدة منها بالتاريخ .

فالمشاعر الذاتية أو القومية للمؤرخ قد تدفعه لكتابة التاريخ لكن لايمكن له أن يحقق هدفه من الكتابة إذ هو لم يتجرد منها ،فقد دفعت هذه المشاعر الشعب العربي إلى الغاية والمنتهى وعلى هذا النحو تزايد الإقبال على الدراسة التاريخية وأدى ذلك إلى الإهتمام بالبحث في علم التاريخ عند العرب ودراسة مناهج البحث فيه وهو أمر سبقهم المستشرقون إليه ،كما لم يعب الباحثين العرب على الأخذ من المستشرقين فعلى الرغم من أن جماعة من المستشرقين المنشغلين بالتاريخ الإسلامي قد جانبوا المنهج العلمي فعمدوا إلى التضليل في أبحاثهم لتعمية العرب عن معرفة أمجاد أسلافهم ومنهم من كان يسعى لإبراز الأخطاء التي وقع فيها العرب، ومنهم من مجد الحركات الشعبوية وأبرز روح المقاومة التي مارسها العجم والبربر ضد العرب رغبة في تفتيت وحدة هذا الشعب .

ولقد خص علم التاريخ بجانب كبير من إهتمام الشعوب عليه إلى معرفة مصادر الأمم الماضية وحوادث الأزمات السابقة والإتمام بالأنساب فروا أخبارهم وجمعوا ما استطاعوا جمعه من الروايات وألفوا فيه ولم يتركوا جانبا من جوانب النشاط الإنساني القديم أو الحديث إلا وسجلوا تاريخه فتعددت المصنفات التاريخية والجغرافية وحتى الأدبية والتي تعتبر ذخيرة الباحث في علم التاريخ حيث بواسطتها يمكن إستخلاص ما يمكن إستخلاصه من مادة علمية في المجال الذي ينوي البحث فيه .

الهوامش:

1. حسين مؤنس، التاريخ والمؤرخون، دار الرشاد ،القاهرة، 2001 ، الطبعة الثانية، ص54
2. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المدخل إلى علم التاريخ ، دار المريخ للنشر ،الرياض ، 2002، الطبعة الثانية، ص 73
3. قاسم عبده قاسم، فكرة التاريخ عند المسلمين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، القاهرة، 2001 ، الطبعة الثانية، ص16
4. شوقي الجمل ، علم التاريخ ،المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ،القاهرة 2000،ص143
5. ابن خلدون ،المقدمة ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ،بيروت، 1997، الطبعة الثانية، ص16
6. ابن خلدون ،المصدر السابق ،ص 195
7. حسن عثمان ،منهج البحث التاريخي ،دار المعارف ، القاهرة، 1964، الطبعة الثامنة، ص21-22
8. قاسم يزبك ،التاريخ ومنهج البحث فيه ، ط1، دار الفكر اللبناني ،لبنان 1990 ،ص149
9. فاطمة عوض صابر و ميرفت علي خفاجة، أسس ومبادئ البحث العلمي، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية،القاهرة، 2002 ، الطبعة الاولى، ص 43
10. حسن عثمان ،المرجع السابق ، ص20
11. ابن خلدون ،المصدر السابق، ص16
12. شوقي الجمل، المرجع السابق ، ص 147
13. حسن عثمان، المرجع السابق ، ص23
14. أحمد توفيق المدني،حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، بلا معلومات اخرى، ص8 .
15. قاسم يزبك ،المرجع السابق ، ص 139
16. أسامة عبد الرحمن النور، محاضرات في منهج البحث التاريخي، منشورات ELGA، مالطا،2001، ص109
17. فاطمة عوض صابر ، المرجع السابق ،ص44
18. قاسم يزبك ، المرجع السابق ، ص169
19. عبد الرحمن عبد الله الشيخ ،المرجع السابق ، ص56،25.
20. عبد العزيز سالم،التاريخ والمؤرخون العرب ،دار النهضة العربية،بيروت ، بلا معلومات أخرى ، ص 132-133
21. قاسم يزبك، المرجع السابق ،ص 18
22. عبد العزيز سالم ،المرجع السابق ،ص124
23. شوقي الجمل ،المرجع السابق ،ص143
24. عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ،124
25. شوقي الجمل ،المرجع السابق ،ص143
26. المرجع نفسه ،ص116
27. المرجع نفسه ،ص98